العناصر المرجعية (الضميرية) في سورة الكهف
دراسة نصية وظيفية

*عبد المهدي الجراح، إبراهيم الكوفحي ومحمد القضاة **

ملخـص

يهدف هذا البحث إلى دراسة العناصر المرجعية الضميرية في سورة "الكهف" من منظور نصي وظيفي؛ وذلك لإبراز أثرها في تشكيل الأبعاد التواصلية والتماسكية للنص القرآني.

تناول البحث بداية مفهوم المرجع، وأهميته، ثم الأبعاد النصية للضمائر في العربية، وانتقل بعد ذلك لدراسة الوظائف النصية للضمائر في سورة "الكهف"، وتحليلها نصياً.

خلص البحث إلى أن العناصر المرجعية الضميرية تسهم في تأسيس وظائف نصية محددة وثابتة، من شأنها أن تعزز الأبعاد التواصلية التأثيرية للنص القرآني، كما أنها تقوم بتوجيه الخطاب القرآني الوجهة المحددة وفقاً للمقصدية القرآنية.

الكلمـات الدالـة: المرجع، الضمير، سورة الكهف، التواصل، الوظيفة.

المقدمــة

لقي بحث المرجع أو الإحالة (Anaphora) اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين في لسانيات النص Text Linguistics؛ لما له من أهمية كبرى في توجيه الخطاب، وتعزيز مبدأ التماسك النصي الذي هو قوام التواصل (عملية الاتصال اللغوي). ولكن رغم هذا الاهتمام، إلا أن ما يلحظ في هذا الاهتمام هو بحث شبه نظري يقوم على أمثلة مجتزأة، دون النظر في بنية النص كاملةً، أي: دراسة المرجع في نص أدبي من منظور لغوي نصي.

يأتي هذا البحث؛ ليضع المرجع في موضعه الحقيقي وهو النص، وذلك عن طريق بحث نوع من العناصر المرجعية إلا وهو الضمائر في سورة "الكهف"، أي: بحث المرجع في أبلغ النصوص، وهي نصوص القرآن الكريم.

وقد أثبت التحليل اللغوي والدلالي لموقعية العناصر المرجعية الضميرية في النص القرآني، أنها تضطلع بالقيام بمجموعة من الوظائف النصية المهمة التي تؤسس اللحمة النصية وهي:

- الربط المحدد بالمقصدية السياقية.
- تعزيز بنية التعدد المرجعي.
- توجيه الخطاب نحو سياق الحال (المقام).
- توجيه الخطاب نحو النص نفسه.

وقبل البدء ببحث هذه الوظائف، لابد من بحث بعض المسائل المهمة مثل: مفهوم المرجع، وأهميته، والأبعاد النصية للضمائر في العربية.

أولاً: في مفهوم المرجع

يتضح عن طريق البحث والتمحيص في ما قدمه علماء علم لغة النص، أن المرجع أو الإحالة (Anaphora) عنصر لفظي لا يتضح معناه إلا من خلال العلاقة القائمة بينه وبين ما يوضحه، سواء أكان سابقاً له أم لاحقاً، وهو بهذا، يأخذ الجانب الدلالي إطاراً له، ويبني العلاقات النصية فيما بين أجزاء الخطاب الواحد، والخطابات مجتمعه بناء على تفعيل الجانب المرجعي في عملية الربط(1).

إذن فالمرجع هو مجموعة ألفاظ محددة تعود على عناصر لفظية ملفوظة أو مقدرة(2)، وهو بهذا المنحى لا يحيا إلا داخل النص أو الخطاب، وشرط وجوده هو النص(3). ويجب بداية التمييز بين المرجع والعناصر المرجعية أو الإحالة والعنصر المحيل، فالمرجع هو الكل والعنصر المرجعي هو جزء، فالمرجع هو حصيلة التفاعل العلائقي الحاصل فيما بين العنصر المحيل والمحال إليه، والعناصر المرجعية مثل:

* قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم والآداب، جامعة العلوم والتكنولوجيا(1)؛ قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية(2)؛ قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية(3).
تاريخ استلام البحث 2006/12/4، وتاريخ قبوله 2007/8/29.

الضمائر، تعد بمثابة المؤشرات التي لا تعرف إلاّ عن طريق علاقاتها بمراجعها(4).

وهذه العلاقة هي التي تدفع إلى جعل العناصر المرجعية لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لابد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها، وتأتي الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة على رأس هذه العناصر في كلّ اللغات الطبيعية(5).

ولتوضيح ذلك نأخذ النص القرآني التالي مثالاً تطبيقاً حياً، يقول الله عز وجل في بداية سورة الكهف: "**الْحمد لِله الذي أَنزلَ على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا {1} قيماً لينذر بأْساً شَديداً مـن لدنه ويبشر المؤْمنين الذين يعملُون الصالِحات أَن لهم أَجراً حسناً {2}**" فالضمير الهاء في (عبده) و(له) و(لدنه)، وكذلك في (لهم) عناصر مرجعية تحيل إلى الله العظيم، والكتاب والله العظيم والمؤمنين على التوالي، ولا يخفى دور هذه العناصر المرجعية " الضميرية" في ربط التراكيب بعضها ببعض عبر التتابع السياقي للنص. وهذا الضمير لا يمكن فهمه إلا عن طريق ربطه مباشرة بما يفَسّره، أي: بمرجعه المباشر، وهو عودته إلى الله عز وجل والكتاب والله العظيم والمؤمنين على التوالي.

ثانياً: أهمية المرجع نصياً

الحديث عن أهمية المرجع عبر البنية النصية يقود إلى بحث أنواع المرجع؛ لأن كل نوع من أنواع المرجع له أهمية خاصة في النص.

يقسم هاليداي ورقية حسن المرجع إلى مرجع مقالي ومرجع نصي، أما المقامي فيحيل إلى خارج النص، وأما النصي فيحيل إلى سابق (قبلي)، وإلى لاحق (بعدي)، ويمكن تمثيل ذلك بالمخطط التالي(6):

ويركز الباحثان على المرجع النصي؛ لأنه هو الذي يسهم بدور فاعل في اتساق النص، مع إيمانهما التام بأن المرجع المقامي يسهم في خلق النص؛ لأنه يربط اللغة بسياق المقام إلاّ أنه لا يسهم في اتساقه بشكل مباشر كما هو الحال في المرجع النصي(7).

ويصنف الباحثان أقسام المرجع النصي إلى:

أ- الضمائر (Personal).

ب- أسماء الإشارة (demonstrative) المحايدة والاختيارية.

ج- أدوات المقارنة (Comparative) العامة والخاصة(8).

وعرض أنواع المرجع يشير إلى أن المرجع أو العناصر المرجعية تؤدي دوراً مهماً في تحقيق مجموعة من الوظائف وهي:

- التلاحم النصي (السبك).
- التماسك النصي (الحبك).
- التشكيل النصي (الوحدة الكلية).
- الانسجام النصي (التواؤم).
- النصية بشكل عام (9).

وإذا تحققت هذه العناصر؛ فإن عملية الاتصال اللغوية تنجح نجاحاً كبيراً في تحقيق رسالتها، وغرضها الأصيل، يقول سمير استيتية: "التماسك مجموعة من العلاقات اللفظية أو الدلالية بين أجزاء النص، إذ تلتحم هذه الأجزاء، ويتماسك بعضها مع بعض، بحيث إذا غاب هذا الالتحام، ظهر النص وكأنه أشلاء ومزق لا رابط بينها. وللتماسك أهمية كبرى في العمل الأدبي، بل في كل عمليات الاتصال اللغوي"(10)، وهذا يضمن سلامة الفهم والإفهام بالنسبة للمتلقي(11).

ثالثاً: الأبعاد النصية للضمائر في العربية

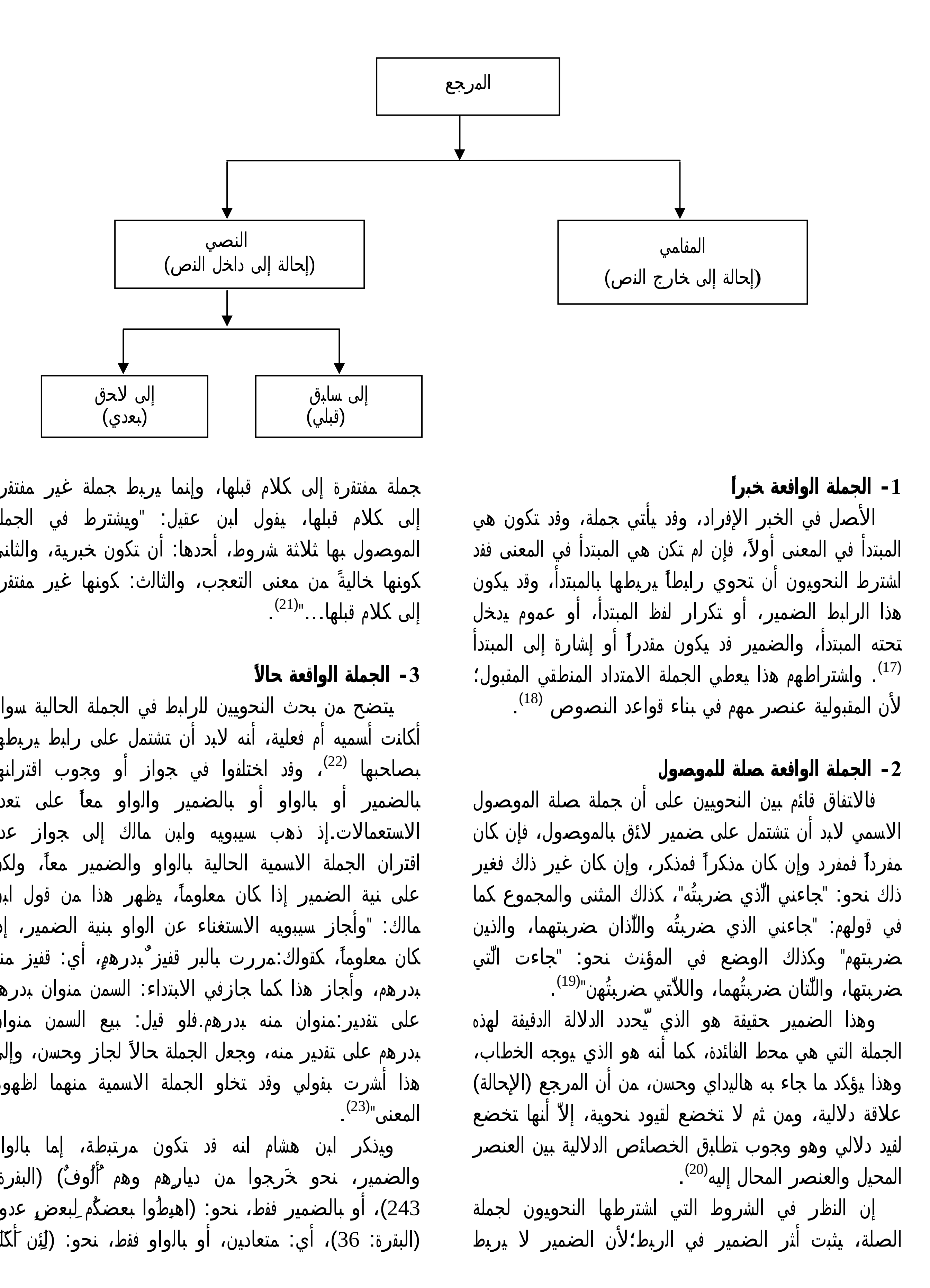
ليس القصد من هذا الجزء من البحث الوقوف على الضمائر وأنواعها في العربية، واستعمالاتها، وخلافات النحويين فيها، وإنما القصد هو التركيز على البعد النصي للضمير، ويقصد بالبعد النصي أن يتجاوز الملفوظ الذي يضم الضمير حدود أو إطار الجملة الواحدة ليبني علاقة سببية حقيقية مع المحال إليه، أي علاقة سببية فيما بين العنصر المرجعي (الضمير)، والمرجع نفسه (المحال إليه).

وفي التحليل النحوي التقليدي نجد أن النحويين كانوا قد اتفقوا على أن الضمير يحتاج إلى ما يفسره، وقد يفّسر مفرداً، وقد يفسر جملة(12)، وبخاصة ضمير الشأن الذي يتقدم على الجملة فتكون الجملة خبراً له(13)، وحاجة الضمير إلى سابق أو لاحق ليفسره تجعل العلاقة قوية جداً فيما بين الضمير وما يفسّره، ومن هنا تنشأ العلاقة النصية، ويكون الحديث عن العلاقات حديثاً عن نص متكامل لا عن جملة واحدة.

وعلى أية حال، فإن الضمائر أعرف المعارف، والضمير ما دل على غيبة كهو، أو حضور، وهو قسمان: أحدهما ضمير المخاطب نحو أنت، والثاني: ضمير المتكلم نحو: أنا(14)، ويكون بارزاً منفصلا ومتصلاً.

ويقسّمها هاليداي وحسن إلى ضمائر وجودية مثل: أنا، أنت، نحن، هو، هم، هن... الخ، وملكية مثل: كتابي، كتابك، كتابها، كتابه، كتابنا... الخ(15)، وتداخل الأصوات والضمائر داخل النص يكون في الحقيقة لإضاءة الحدث(16).

أما المظاهر النصية لاستعمالات الضمير عند النحويين فتتجلى – إضافة لما تقدم ذكره – في اشتراطهم الضمير رابطا في الجملة الواقعة خبراً ونعتاً، وصلة، وحالاً، وحديثهم حقيقة هو حديث نصي لا جملي، وفيما يلي بسط لذلك:



1- الجملة الواقعة خبراً

الأصل في الخبر الإفراد، وقد يأتي جملة، وقد تكون هي المبتدأ في المعنى أولاً، فإن لم تكن هي المبتدأ في المعنى فقد اشترط النحويون أن تحوي رابطاً يربطها بالمبتدأ، وقد يكون هذا الرابط الضمير، أو تكرار لفظ المبتدأ، أو عموم يدخل تحته المبتدأ، والضمير قد يكون مقدراً أو إشارة إلى المبتدأ [17]. واشتراطهم هذا يعطي الجملة الامتداد المنطقي المقبول؛ لأن المقبولية عنصر مهم في بناء قواعد النصوص [18].

2- الجملة الواقعة صلة للموصول

فالاتفاق قائم بين النحويين على أن جملة صلة الموصول الاسمي لابد أن تشتمل على ضمير لائق بالموصول، فإن كان مفرداً فمفرد وإن كان مذكراً فمذكر، وإن كان غير ذلك فغير ذلك نحو: "جاءني الّذي ضربتُه"، كذلك المثنى والمجموع كما في قولهم: "جاءني الذي ضربتُه واللّذان ضربتهما، والذين ضربتهم" وكذلك الوضع في المؤنث نحو: "جاءت الّتي ضربتها، واللّتان ضربتُهما، واللاّتي ضربتُهن"[19].

وهذا الضمير حقيقة هو الذي يّحدد الدلالة الدقيقة لهذه الجملة التي هي محط الفائدة، كما أنه هو الذي يوجه الخطاب، وهذا يؤكد ما جاء به هاليداي وحسن، من أن المرجع (الإحالة) علاقة دلالية، ومن ثم لا تخضع لقيود نحوية، إلاّ أنها تخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه[20].

إن النظر في الشروط التي اشترطها النحويون لجملة الصلة، يثبت أثر الضمير في الربط؛لأن الضمير لا يربط جملة مفتقرة إلى كلام قبلها، وإنما يربط جملة غير مفتقرة إلى كلام قبلها، يقول ابن عقيل: "ويشترط في الجملة الموصول بها ثلاثة شروط، أحدها: أن تكون خبرية، والثاني كونها خاليةً من معنى التعجب، والثالث: كونها غير مفتقرة إلى كلام قبلها..."[21].

3- الجملة الواقعة حالاً

يتضح من بحث النحويين للرابط في الجملة الحالية سواء أكانت أسميه أم فعلية، أنه لابد أن تشتمل على رابط يربطها بصاحبها [22]، وقد اختلفوا في جواز أو وجوب اقترانها بالضمير أو بالواو أو بالضمير والواو معاً على تعدد الاستعمالات.إذ ذهب سيبويه وابن مالك إلى جواز عدم اقتران الجملة الاسمية الحالية بالواو والضمير معاً، ولكن على نية الضمير إذا كان معلوماً، يظهر هذا من قول ابن مالك: "وأجاز سيبويه الاستغناء عن الواو بنية الضمير، إذا كان معلوماً، كقولك:مررت بالبر قفيزٌ بدرهمٍ، أي: قفيز منه بدرهم، وأجاز هذا كما جازفي الابتداء: السمن منوان بدرهم على تقدير:منوان منه بدرهم.فلو قيل: بيع السمن منوان بدرهم على تقدير منه، وجعل الجملة حالاً لجاز وحسن، وإلى هذا أشرت بقولي وقد تخلو الجملة الاسمية منهما لظهور المعنى"[23].

ويذكر ابن هشام انه قد تكون مرتبطة، إما بالواو والضمير، نحو خَرجوا من ديارِهم وهم أُلوفٌ) (البقرة: 243)، أو بالضمير فقط، نحو: (اهبِطُوا بعضكُم ِلبعضٍ عدو) (البقرة: 36)، أي: متعادين، أو بالواو فقط، نحو: (لَئِن أَكَلَه

الذِّئْب ونَحن عصبةٌ) (يوسف: 14)[24].

وذهب كل من: المبرد[25]، والصيمري[26]، وابن يعيش[27]، والمالقي[28]، وابن عصفور[29]، إلى جواز اقتران الاسمية إما بالواو وإما بالضمير، وقد صرح بعضهم تصريحاً مباشراً بالاقتصار على الضمير في عملية الربط، يقول السكاكي: "وإذا عرفت هذا ظهر لك أن الأصل في الجملة إذا وقعت موقع الحال أن لا يدخلها الواو"[30].

ورغم تعدد الاتجاهات في هذا المجال فإن بحث النحويين للرابط في الجملة الحالية سواء أكانت اسمية أم فعلية، يثبت الأثر الحقيقي للضمير في عملية ربط الجملة الحالية بما يسبقها أي: العامل وصاحبها، وهذا الحديث يمكن أن يندرج ضمن الأبعاد النصية لا الأبعاد الجملية أي: ضمن نحوية النص، لا نحوية الجملة.

والناظر في حركة الضمير – والمقصود بالحركة موقعه ووظيفته- في بنية النصوص العربية، يكتشف أن الضمير يقوم – لكونه عنصراً مرجعياً- بمجموعة من الوظائف النصية الكبرى داخل النص، وبحثه في القرآن الكريم يثبت ذلك، وفيما يلي عرض لوظائفه في سورة " الكهف".

رابعاً: الوظائف النصية للضمائر في سورة "الكهف"

يثبت التحليل اللغوي النصي لبنية العناصر المرجعية الضميرية في النص القرآني، أن هذه العناصر تؤدي مجموعة محددة من الوظائف النصية التي تسهم في عملية التواصل والتأثير المكثفين، وهذا من شأنه أن يعزّز الأبعاد التواصلية التأثيرية للنص القرآني في القارئ (المستقبل)، فتزيد من عمق اللحمات النصية للتراكيب عبر السياقات المتعددة، وقد قام البحث بحصرها فيما يلي:

أ- الربط المحدد بالمقصدية السياقية.

ب- تعزيز بنية التعدد المرجعي.

ج- توجيه الخطاب نحو النص نفسه.

د- توجيه الخطاب نحو المقام (سياق الحال).

فيما يلي بحث لهذه الوظائف بما يوضحها، ويدعّمها من النص القرآني.

أ- الربط المحدد بالمقصدية السياقية

توجد في عنوان هذه الوظيفة ثلاثة مصطلحات بحاجة إلى توضيح وتحديد، وهي: الربط، والمقصدية، والسياق، فما المقصود بها؟

الربط هو علاقة منطقية تنشأ بين التراكيب لوجود مبررات لغوية وغير لغوية (مقامية) وينشأ من طبيعة التراكيب نفسها، لأنه مرتبط بالنحو الذي هو محور اللغة ومركزها، فهو " العلم الذي يضبط الجمل والتراكيب على ما تقتضيه أنظمتها التركيبية"[31].

أما المقصدية: فهي تعزيز مبدأ القصد اللغوي الدلالي، أي أنك تنشئ هذه الجملة لقصد محدد أو لغاية محددة، وهذا يعزز مسألة التكامل الحاصل فيما بين النحو والدلالة، أو التركيب وهدفه.

أما السياق: فهو حضور علائقي بين الألفاظ ومعانيها، أي هو الوعي بالعلاقات التركيبية السياقية.

وبناءً على ذلك، فإن العناصر المرجعية الضميرية تقوم بربط التراكيب بعضها ببعض وفقاً للمقصدية السياقية، وهذا يجعل النص القرآني يصل إلى أعلى درجات الاكتمال، وهذا شائع في النص بكثرة؛ لكونه يمثل علاقة طبيعية تربط التراكيب بعضها ببعض، يقول ا عز وجل:

"واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لِأحدهما جنتَين من أَعنابٍ وحفَفْنَاهما بِنَخْلٍ وجعلنَا بينَهما زرعاً {32} كلْتَا الْجنتَين آتَتْ أُكُلَها ولَم تَظْلم منْه شَيئاً وفَجرنَا خلالَهما نَهراً {33} وكَان لَه ثَمر فَقَالَ لِصاحبِه وهو يحاوِره أَنَا أَكْثَر منك مالاً وأَعز نَفَراً {34} ودخَلَ جنتَه وهو ظَالِم لنَفْسه قَالَ ما أَظُن أَن تَبِيد هذه أَبداً {35} وما أَظُن الساعةَ قَائِمةً ولَئِن رددت إِلَى ربي لَأَجِدن خَيراً منْها منقَلَباً {36}".

تتوفر في هذا النص عناصر مرجعية "ضميرية" كثيرة تحيل إلى ماهيات مرجعية ثابتة ومحددة وهي: أحد الرجلين، وإحداهما، والجنتان، والجنة، وهي موزعة كما في الجدول التالي:

المرجع الأساس	اللفظ الحامل للعنصر الضميري المرجعي	العنصر الضميري المرجعي الظاهر والمستكن في البنية العميقة للفظ.
الرجلان	أحدهما	(هما)
الجنتان	حففناهما	(هما)
الجنتان	بينهما	(هما)
كلتا	ءاتت	(هي)
الجنتان	خلالهما	(هي)

المرجع الأساس	اللفظ الحامل للعنصر الضميري المرجعي	العنصر الضميري المرجعي الظاهر والمستكن في البنية العميقة للفظ.
أحدهما	فقال	(هو)
أحدهما	وهو يحاوره	(هو)
أحدهما	أنا	(أنا)
أحدهما	منك	(أنت)
أحدهما	دخل	(هو)
أحدهما	جنته	(هو)
أحدهما	وهو ظالم	(هو)
أحدهما	قال	(هو)
أحدهما	ما أظن	(أنا)
الجنة	تبيد	(هي)
الجنة	هذه	(هي)
أحدهما	أظن	(أنا)
أحدهما	**ربي**	(أنا)
أحدهما	لأجدن	(أنا)
أحدهما	منها	(هي)

فالعناصر المرجعية الضميرية، تحيل في بنيتها الظاهرة (السطحية)، والعميقة على اختلاف التراكيب إلى محور القص في المقصدية الثابتة للخطاب القرآني وهما الرجلان؛ لأن التقدير كما يقول أبو حيان هو "واضرب لهم مثلاً قصه رجلين"[32]. وهذه المراجع الضميرية على اختلافها سواء أكانت متصلة أم منفصلة ظاهرة أم مستترة، ترتد في بنيتها العميقة إلى محورين أساسيين هما حضوري وغيبي، أي: محور يدل على الحضور، ومحور يدل على الغياب، وأدنى نظرة في النص تؤكد أن هذه العناصر، قد أسهمت بطريقة مباشرة في بناء عنصر القص، وأن لها فعالية حضورية في بناء التواصل السياقي، ولم تجعل السياق يضعف أو ينقطع، وهذا التتابع أو التواتر لهذه العناصر المرجعية يفضي إلى وظيفة مهمة أيضاً ويعّززها، وهي التعدد المرجعي.

تعزيز بنية التعدد المرجعي

التعدد المرجعي ظاهرة لافتة للنظر في النص القرآني، ويعود هذا إلى عودة العناصر المرجعية الضميرية إلى مرجع ثابت أو ماهية مرجعية ثابتة، فتكون بذلك قد أسهمت في الدخول في التفصيلات التي تخدم المرجع الأساسي الذي قد يكون جزءاً من الحدث كاملاً، أو قد يكون الحدث كاملاً.

ويقوم هذا التعدد بحسب وجهة دي بوجراند Debeugrande، وبراون ويول brownandyulle بتحفيز القارىء وتنشيطه على فهم المحتوى المفهومي للأحداث المتعاقبة عبر البنية النصية وإدراكه بطريقة جيدة [33].

والشواهد على ذلك كثيرة جداً في السورة يقول ا عز وجل: "**وإذْ قالَ موسى لِفَتَاه لا أبرح حتى أبلُغَ مجمع البحرين أو أمضي حقُباً {60} فلما بلغَا مجمع بينهما نَسيا حوتَهما فاتخَذَ سبيله في البحر سرباً {61} فلما جاوزا قالَ لِفَتَاه آتنا غَداءنَا لقَد لقينَا من سفَرنَا هذَا نَصباً {62} قالَ أرأيتَ إذْ أوينَا إلى الصخْرة فإني نَسيتُ الحوتَ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذْكُره واتخَذَ سبيله في البحر عجباً {63} قالَ ذَلك ما كُنا نَبغ فارتَدا على آثَارهما قصصاً {64} فوجدا عبداً من عبادنَا آتَيناه رحمةً من عندنَا وعلمناه من لدنا علْماً {65} قالَ له موسى هلْ أتبِعك على أن تُعلمن مما علمتَ رشْداً {66} قالَ إنك لن تَستَطيع معي صبراً {67} وكَيفَ تَصبر على ما لم تُحطْ به خُبراً {68} قالَ ستَجِدني إن شَاء الله صابِراً ولا أعصي لك أمراً {69} قالَ فإِن اتبعتَني فلا تَسأَلني عن شَيء حتى أُحدثَ لك منْه ذكْراً {70} فانطَلَقا حتى إذَا ركبا في السفينَة خَرقَها قالَ أخَرقْتَها لِتُغْرِقَ أهلَها لقَد جِئْتَ شَيئاً إِمراً {71} قالَ أَلم أَقُلْ إِنك لن تَستَطيع معي صبراً {72} قالَ لا تُؤَاخذْني بِما نَسيتُ ولا تُرهقْني من أَمري عسراً {73} فانطَلَقا حتى إذَا لقيا غُلاماً فقَتَله قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زكيةً بِغَير نَفْسٍ لقَد جِئْتَ شَيئاً نكْراً {74} قالَ أَلم أَقُل لك إِنك لن تَستَطيع معي صبراً {75} قالَ إِن سأَلتُك عن شَيء**

بعدها فلا تُصاحبني قد بلغْتَ من لدني عذْراً {76} فانطلقا حتى إذا أتيا أهلَ قرية استطْعما أهلها فأبوا أن يضيفُوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قالَ لو شئْتَ لاتخذْتَ عليه أجراً {77} قالَ هذا فراقُ بيني وبينك سأُنبِئُك بتأْويل ما لم تستطع عليه صبراً {78}"

إذْ تتضافر العناصر المرجعية الضميرية التي تتضمنها هذه الآيات؛ لإيضاح طبيعة الأحداث المتعاقبة بدءاً من قول موسى لفتاه على جهة إمضاء العزيمة: هذا فراق بيني وبينك وسأخبرك بتأويل الأحداث التي لم تستطع الصبر عليها.

أما الماهيات المرجعية التي تحيل إليها العناصر المرجعية الضميرية فهي: موسى عليه السلام، و فتى موسى، وكذلك العبد الذي لقيه موسى وفتاه، وهذا العبد هو الخضر، يقول أبو حيان: "(فوجدا) أي: موسى والفتى (عبداً من عبادنا) هذا إضافة تشريف واختصاص، وجداه عند الصخرة التي فقد الحوت عندها، وهي مسجي في ثوبه مستلقياً على الأرض، فقال السلام عليك، فرفع رأسه وقال: أني بأرضك السلام، ثم قال له من أنت؟ قال أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال له: ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا، قال: بلى، ولكن أحببت لقاءك وأن أتعلم منك، قال له: إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه أنا، والجمهور على أنه الخضر..."[34].

وكذلك الغلام الذي لقيه الخضر وسيدنا موسى وأهل القرية، وتجدر الإشارة إلى أن الضمائر المنتظمة في الألفاظ والجمل جميعها، كما هو واضح في النص، تحيل إلى هذه الماهيات المرجعية؛ لكونها هي التي تصنع الأحداث المتسلسلة داخل النص القرآني.

توجيه الخطاب نحو النص نفسه

تعد هذه الوظيفة من أهم الوظائف التي تقوم بها العناصر المرجعية الضميرية في السورة، وهي تمثل مرحلة مهمة من مراحل الفهم والإفهام ولفت الأنظار إلى تفسير الأفكار الواردة في السورة اعتماداً على السياق اللغوي، دون الرجوع إلى السياقات غير اللغوية، أي اعتماداً على المنظومة اللغوية نفسها دون العودة إلى المقام أو سياق الحال.

وقد بحث فان ديك Van Dijk مسألة التعالقات السياقية بحثاً مستفيضاً، فكان يفسّر النص اعتماداً على السياقات غير اللغوية، وقد انشغل بهذا الأمر انشغالاً كبيراً، وبقيت فكرة العوالم المشكلة للنص مسيطرة على تفكيره في معظم أبحاثه[35].

وقد خالفه في ذلك روبرت دي بوجراند Debeaugrande الذي كان يؤمن بأن مرحلة التفسير يجب أن تبدأ من النص[36]، وبناء على تصوره هذا فإن العناصر المرجعية الضميرية تسهم في عملية تفسير النص وتوجيهه نحو السياقات النصية نفسها، وفي هذا فائدة كبيرة للنص، إذ تجعل العلاقات داخل النص متتابعة ومبررة ومنطقية، وهذا كله يسهم في عملية التأثير والإقناع، يقول الله عز وجل: "**ويسأَلونك عن ذي القَرنَين قُلْ سأَتْلو عليكُم منه ذكْراً {83} إنا مكنا له في الأَرض وآتيناه من كُل شيء سبباً {84} فأَتْبع سبباً {85} حتى إذا بلغَ مغْرب الشمس وجدها تغْرب في عين حمئَة ووجد عندها قوماً قُلْنا يا ذَا الْقَرنَين إما أَن تُعذب وإما أَن تتخذَ فيهم حسناً**".

تميز في هذا النص أربع ماهيات مرجعية وهي: النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذو القرنين، والشمس، وتقوم العناصر المرجعية الضميرية المتنوعة في الألفاظ التالية بتوجيه التراكيب والألفاظ لتفسير بعضها البعض:

- منه.
- له.
- آتيناه.
- فأتبع على تقدير هو.
- بلغ على تقدير هو.
- وجدها – على تقدير هو والهاء العائدة على الشمس.
- تغرب على تقدير هي.
- وجد على تقدير هو.
- عندها.

ويلحظ وجود تداخل بين العناصر المرجعية التي تحيل إلى المراجع الثابته، مثل: وجدها، إذ يتم تقدير الضمير (هو) العائد على ذي القرنين والهاء العائدة على الشمس، وهذه العناصر تربط الأحداث بعضها ببعض، وتوجّه عنصر القص على تنوعها، ومنه قوله تعالى: "**قُلْ هلْ ننَبئُكُم بالأَخْسرِين أَعمالاً {103} الذين ضل سعيهم في الْحياة الدنْيا وهم يحسبون أَنهم يحسنُون صنْعاً {104} أُولَئك الذين كفَروا بآيات ربهم ولقائه فحبِطتْ أَعمالُهم فلَا نُقيم لهم يوم الْقيامة وزناً {105} ذَلك جزاؤُهم جهنم بما كفَروا واتخَذُوا آياتي ورسلي هزواً {106}**".

فالعناصر المرجعية التي تظهر في الملفوظات (سعيهم يحسبون، أنهم، يحسنون، ربهم، أعمالهم، لهم) والمتمثلة بضمير الغائب (هم)، تقوم بتوجيه الخطاب نحو محور الخطاب، وهم الأخسرون أعمالاً، و"الأخسرون أعمالاً هم كل من دان بدين غير الإسلام، أو راءى بعمله، أو أقام على

بدعة تؤول به إلى الكفر"[37]. ودون هذه العناصر المرجعية يتشتت الخطاب، ويصبح جملاً مبعثرة، فالمقصدية القرآنية اقتضت وجود هذا النسق المرجعي، الذي يعطي النص اللحمة، والتماسك، والاستمرارية.

د- توجيه الخطاب نحو سياق الحال (المقام)

تعد مسألة توجيه الخطاب نحو سياق الحال أو المقام من أهم المهام التي تؤديها العناصر المرجعية الضميرية في السورة، إذ تتضافر وتتتابع العناصر المرجعية الضميرية، فتحيل إلى ماهية مرجعية محددة تكون محور النص، وتبقى هذه العناصر المرجعية تدور في فلك الماهية المرجعية الثابتة.

وهذا الأمر يعكس ثمرة التفاعل بين النص وسياقاته المشكلة له، هذه السياقات التي تشكل النص، وتكون محوراً للتفصيلات التي ترسم دقائق الأمر، وقد ركز ديك Van Dijk على أهمية السياق في تشكيل النص، أو المحاور التي تشكل النص، وأهمية العناصر التي تحيل إلى ماهية سابقة، وتكون مربوطة بالنسق السياقي نفسه[38].

يقول الله عز وجل: "**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً {59}**".

إذ يحيل العنصر المرجعي الضميري "هم" في أهلكناهم ولمهلكم إلى "القرى"، والمقصود من المصدر الميمي: (مهلكهم) الهلاك، والقرى مرتبطة بمقام أو بسياق غير لغوي، إنّه السياق المعرفي الذي يتضمن المعرفة بهذه القرى، فما هي هذه القرى؟

يقول أبو حيان الأندلسي: "وأشار تعالى بقوله (وتلك القرى) إلى القرى المجاورة أهل مكة والعرب كقرى ثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بما جرى عليهم، وليحذورا ما يحل بهم كما حل بتلك القرى"[39].

إذن فالضمير يحيل إلى القرى المجاورة لقرى العرب مثل ثمود وقوم لوط وما جرى منهم.

ومنه قوله تعالى: "**أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيم كانُوا من آياتنَا عجباً {9} إذْ أوى الفتْيةُ إلى الكهف فقالُوا ربنَا آتنَا من لدنكَ رحمةً وهيئْ لنَا من أمرنَا رشَداً {10} فَضربنَا على آذَانهم في الكهف سنين عدداً {11} ثُم بعثْنَاهم لنَعلم أي الحزبين أحصى لما لبثُوا أمداً {12}**".

فالعناصر المرجعية الضميرية التي تحيل إلى أصحاب الكهف والرقيم تُدرك في الملفوظات التالية مرتبة حسب الجدول التالي:

الحاضر	الغائب
آياتنا (نا)	كانوا (هم)
ربنا (نا)	فقالوا (هم)
آتنا (نا)	بعثناهم (هم)
لنا (نا)	أمرنا (نا)
آذانهم (هم)	فَضربنَا (نا)
بعثناهم (هم)	لبثوا (هم)

وهي تحيل إلى أصحاب الكهف، وقصة أصحاب الكهف معلومة للجميع، فهي توجه الخطاب نحو سياق الحال أو المقام، وهذا خطاب للنبي- صلى الله عليه وسلم – وإظهار لعظم قدرة الله عز وجل، يقول أبو حيان نقلاً عن الزمخشري "ثم قال (أم حسبت) يعني أن ذلك من قصة أهل الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة"[40].

والغرض من كل ما تقدم هو التمثيل لا الحصر، فهناك وظائف كثيرة تقوم بها العناصر المرجعية الضميرية في السورة، فحسبنا ما هدينا إليه من هذه الوظائف، التي تظهر الأثر القوي والفاعل لهذه العناصر في الترابط النصي، وجعل النص يتمتع بأعلى درجات التأثير، نظراً للأثر الفاعل لهذه العناصر أيضاً في تعزيز عناصر الاتساق النصي الأخرى.

الخلاصــة

بعد دراسة العناصر المرجعية الضميرية ووظائفها النصية في سورة " الكهف" يثبت البحث ما يلي:

أولاً: تسهم هذه العناصر في تكوين وظائف نصية محددة وثابتة، من شأنها أن تعزز الأبعاد التواصلية التأثيرية للنص القرآني، ومن هذه الوظائف: الربط المحدد بالمقصدية السياقية، وتعزيز بنية التعدد المرجعي، وتوجيه الخطاب نحو النص نفسه، وتوجيه الخطاب نحو المقام (سياق الحال).

ثانياً: تسهم هذه العناصر في تحقيق مبدأ الفهم والإفهام الدقيق للخطاب القرآني؛ لأنها تقوم بتوجيهه الوجهة الحقيقية، النابعة من مقصدية سياقية، تخدم الموقف القرآني.

ثالثاً: تعزّز هذه العناصر العلاقة الحقيقية فيما بين التراكيب ودلالاتها، النص والسياقات المشكلة له.

رابعاً: تعطي هذه العناصر النص البعد التأثيري، الذي يعّزز مسألة التماسك النصي.

الهوامـش

(1) انظر: بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، ص 80-85.
(2) Halliday and Hasan: Cohesion in English, PP 33-87.
(3) الزناد، نسيج النص، ص118.
(4) شولز، السيمياء والتأويل، ص17.
(5) خطابي، لسانيات النص، مدخل انسجام الخطاب، ص17.
(6) هاليداي وحسن، مرجع سبق ذكره، ص33.
(7) المرجع السابق، ص33.
(8) المرجع السابق، ص33.
(9) انظر: بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، ص91.
(10) استيتية، منازل الرؤية (منهج تكاملي في قراءة النص)، ص20.
(11) انظر: Cornish, Francis: Anaphora, Discourse and Understanding, P59.
(12) انظر مثلاً: ابن يعيش، شرح المفصل، ج3/ص110.
(13) انظر: المصدر نفسه، ج3/ص118.
(14) انظر: ابن عقيل، شرح ابن عقيل، 80/1 - 38. والصبان، حاشية الصبان، 161/1.
(15) انظر: هاليداي وحسن، مرجع سبق ذكره، ص76.
(16) انظر: صدوق، حدود النص الأدبي (دراسة في التنظير والإبداع) ص22.
(17) ابن عقيل، مصدر سبق ذكره، 176/1.
(18) انظر: De Beaugrande and Dressler: Introduction to Text Linguistics, P.3.
(19) انظر: ابن عقيل، مصدر سابق، 134/1.
(20) انظر: هاليداي وحسن، مرجع سبق ذكره، ص76، وخطابي، مرجع سبق ذكره، ص170.
(21) ابن عقيل، مصدر سابق، 135/1.
(22) انظر مثلاً: المبرد، المقتضب، 125/4 وسيبويه، الكتاب، 391/1 وابن عصفور، المقرب، 170/1، وابن مالك، شرح العمدة، ص458.
(23) ابن مالك، شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، 458.
(24) ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ومعه مصباح السالك إلى أوضح المسالك، 287/2.
(25) انظر: المبرد، المقتضب، 125/4.
(26) انظر: الصيمري، التبصرة والتذكرة، 125/4.
(27) انظر: ابن يعيش، مصدر سبق ذكره 65/2.
(28) انظر: المالقي، رصف المباني، 419.
(29) انظر: ابن عصفور، المقرب، 170/1.
(30) السكاكي، مفتاح العلوم، 273.
(31) استيتية، اللسانيات، ص217.
(32) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 118/6.
(33) انظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص301. وBrown and yulle: Discourse Analysis, P28.
(34) أبو حيان الأندلسي، مصدر سبق ذكره، 139/6.
(35) انظر: Van Dijk, Tenn (A): Text and Context PP 30-78 van Dijk, strategies of Discoyse Comprehension PP5-53 .
(36) De Beaugrande and Dressler: Introduction to Text Linguistics, P3.
(37) أبو حيان الأندلسي، البحر، 159/6.
(38) Van Dijk, Strategies PP 23-36.
(39) أبو حيان الأندلسي، مصدر سبق ذكره، 133/6.
(40) أبو حيان، مصدر سبق ذكره، 98/6.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

استيتية، سمير، 2005، اللسانيات، المجال والوظيفة، والمنهج، عالم الكتب الحديث، ط1، اربد.

استيتية، سمير، 2002، منازل الرؤية (منهج تكاملي في قراءة النص)، ط1، دار وائل، عمان.

بحيري، سعيد، د.ت، دراسات تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، (د. ط).

بحيري، سعيد، 1997، علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات)، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مكتبة لبنان، ط1.

أبو حيان الأندلسي، محمد يوسف، ت 745هـ، البحر المحيط، تحقيق الشيخ، عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ: علي محمد معوّض، وشارك في تحقيقه: زكريا عبد المجيد النوتي، وأحمد البخولي الجمل، 1983م، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

خطابي، محمد، 1991م، لسانيات النص – مدخل إلى إنسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1.

دي بوجراند، روبرت: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، 1998م، عالم الكتب، القاهرة، ط1.

الزناد، الأزهر، 1993م، نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1.

السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، ت 626هـ، مفتاح العلوم، شرح وضبط نعيم زرزور، 1983م، دار الكتب العلمية، بيروت.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت 180هـ، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، 1988م، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3.

شولز، روبرت: السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي،

1991م، المركز الثقافي العربي، ط.
الصبان، محمد بن علي، ت 1206هـ، حاشية الصبان على شرح الأشموني، د.ت، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، مصر.
صدوق، نور الدين، في حدود النص الأدبي، دراسة في التنظير والإبداع، أفريقيا الشرق.
الصيمري، أبو محمد عبد ا بن اسحق، التبصرة التذكرة، تحقيق فتحي أحمد مصطفى، 1982م، دار الفكر، بيروت.
ابن عصفور، علي بن مؤمن، ت669هـ، المقرب، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري ورفيقه، د.ت، مطبعة العاني، بغداد.
ابن عقيل، بهاء الدين عبد ا العقيلي، شرح ابن عقيل على ألفيه ابن مالك، شرح وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، 1990م، دار الخير، بيروت، ط1.
المالقي، أحمد بن عبد النور، ت 702هـ، رصف المباني في حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الخراط، 1975م، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق.
ابن مالك، جمال الدين محمد، ت 672هـ، شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، تحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري، 1977م، مطبعة العاني، بغداد.
المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، ت 285هـ، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، د.ت، عالم الكتب، بيورت.
ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، ت 643هـ، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

Brown, Gillian and Yule, George: Discourse Analysis, Combrdge University Press, 1987.

Cornish, Francis: anaphora, Discourse, and undertanding.

De Beaugrande, Robert and Dressler, wolfgang: Introduction to text Linguistics. N.Y Longman, Ing 1999.

Halliday, M.A.K. and Hasan, Ruqaiya: Cohesion in English. Longman group L. td, 1983.

Van Dijk, Teun (A): Text and Context. Explorations in the Semantic and pragmdics of Disconsc, long man: London, 1977.

Van Dijk, Tenn (A) and Kintsch, walter: strategies of Discourse Comprehension. Academic press. Subsidiary of Harcourt Brace Jovanovich, 1983.

Pronoun Antecedents in Surat Al-KAHF from Textual Functional Perspective

*Abdelmahdi Aljarah, Ibrahim Alkofahi and Muhammad Alqdah**

ABSTRACT

This research aims at studying pronoun antecedents in surat AL-KAHF from a textual functional perspective in order to highlight its effect in forming the cohesive and communicative ties of koranic text.

This research began with discussing the linguistic notion of antecedent and its significance. An analysis of textual function of pronoun in surat AL-KAHF is then provided.

Findings are that referential pronouns contribute in establishing consistent and specific textual function that enhance the communicative value of Koranic text leading the Korainc discourse to its intended goals.

Keywords: Antecedent, Pronoun, Surat AL-KAHF, Communication, Text, Function.

* Faculty of Science and Arts, University of Science and Technology; Faculty of Arts, The Hashemite University; Faculty of Arts, The University of Jordan. Received on 4/12/2006 and Accepted for Publication on 29/8/2007.